رؤية وحدوية مغايرة للعرب والأفارقة: «أفرابيا» علي مزروعي

حمدي عبد الرحمن حسن(*)

أستاذ العلوم السياسية، في جامعتي زايد والقاهرة.

مقدمة

تُعد قضية الهوية واللغة أبرز مكونات أزمة بناء الدولة الحديثة في أفريقيا بعد الاستقلال. وقد عانى السودان وغيره من بلدان خط التماس العربي ـ الأفريقي، مثل مالي والنيجر وموريتانيا، انقساماً حاداً في الهوية الوطنية، إذ حاولت النخب الحاكمة في بعض هذه الدول تبنّي سياسات التعريب والأسلمة لتحقيق التكامل الوطني. لم يكن مستغرباً أن يرتبط السودان في ظل تصاعد أزمة الجنوب بحركة القومية العربية في أعوام الستينيات من القرن الماضي. كان ذلك واضحاً من استضافتها القمة العربية في الخرطوم عقب الهزيمة العربية عام ١٩٦٧. وفي ظل هذا السياق الفكري والسياسي يطرح علي مزروعي رؤيته للخلاص وتحقيق التنمية الثقافية في دول الجنوب بوجه عام. ففي عام ١٩٦٨ وبدعوة من جامعة الخرطوم يقدم محاضرة مثيرة للجدل عن **الهامشية المركبة** في السودان بوصفه دولة طرفية في كل من العالمين العربي والأفريقي[١].

كان مزروعي معنياً بمسألة الهوية حيث نظر إلى العرب بوصفهم أفروآسيويين، وعليه فقد قدم صورتين متناقضتين للسودان بوصفه إحدى دول التماس العربي ـ الأفريقي: تُجسد **الصورة الأولى** واقع التعدد الثقافي حيث عوالم العروبة والأفريقانية والإسلام. وقد طور مزروعي هذه الرؤية بعد ذلك في إطار مفهوم الميراث الثلاثي لأفريقيا[٢]. أما **الصورة الثانية** فإنها تعبِّر عن أزمة

(*) البريد الإلكتروني: hhamdy21@yahoo.com.

(١) Ali A Mazrui «The Multiple Marginality of the Sudan,» in: Yusuf Fadl Hasan, ed., *Sudan in Africa, Studies Presented to the First International Conference Sponsored by the Sudan Research Unit, 7-12 February 1968* (Khartoum: Khartoum University Press, 1985).

(٢) لقد تمسك علي مزروعي، وهو سليل أسرة عربية عريقة من عمان، منذ البداية بإطار ثقافي ومعرفي في التحليل يركز على مسألة الهوية والانتماء الأفريقي ويؤكد قيم التضامن العربي والأفريقي. ففي عام ١٩٦٣ =

الهوية وعدم القدرة على التعايش المشترك. وقد استشهد بمقولة أحد المشاركين في مؤتمر المائدة المستديرة حول جنوب السودان حينما أكد أن السودان فشل في تكوين مجتمع موحد.

أطلق مزروعي على الحالة السودانية اسم «الثنائية المنقسمة» ونظر إليه باعتباره نموذجاً للهوية العربية الإسلامية المنقسمة. وبعد نحو عدة سنوات يستطيع مزروعي تطوير رؤية متكاملة للعلاقات الأفروعربية من منظور ثقافي وتاريخي يتجاوز كل المعوقات التي تدعو للفرقة والانقسام. هذه الرؤية أطلق عليها اسم «أفرابيا»[٣]. وتسعى هذه الدراسة لإعادة الاعتبار إلى هذا المفهوم والإفادة من تراث الفكر السياسي والاجتماعي للعلامة علي مزروعي في ما يتعلق بتشكيل جبهة عربية ـ أفريقية موحدة لمواجهة تحديات النظام العالمي الجديد.

أولاً: أفرابيا: البدايات والتطور

من الواضح أن الحضور الأبرز لعلي مزروعي في المشهد الثقافي العربي إنما يرجع لعام ١٩٧٦[٤]. ففي ذلك العام عقدت أولى ندوات العلاقات العربية ـ الأفريقية في إمارة الشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة. أطلق حاكم الشارقة على القاعة التي تم فيها اللقاء بين المثقفين العرب والأفارقة اسم «أفريقيا» لتظل بعد ذلك شاهدة على الميراث الثقافي المشترك بين الجانبين. كان مزروعي منشغلاً بمشروعه الفكري الذي ارتكز بالأساس على الأبعاد الثقافية والاجتماعية الأفريقية، كما أنه عكس تعقيدات الواقع التي تتجاوز التناقض بين القوى الاستعمارية والمستعمرات أو بين المحلي والأجنبي أو بين المدني والعسكري أو بين الحاكم والمحكوم. وعليه فقد رأى مزروعي أن مستقبل أزمة أفريقيا السياسية والاجتماعية إنما يرتبط بسياقها التاريخي والفكري، إضافة إلى التطورات اللاحقة في الفكر السياسي والاجتماعي[٥].

= صاغ مفهوم «نحن جميعاً أفارقة» نشر في المجلة الأمريكية لعلم السياسة ليشكل نقطة انطلاق كبرى في تطوره الفكري. لقد وصل هذا المقال لوضعية أفريقيا في مرحلة ما بعد الاستقلال من خلال منظور أفريقي ثقافي جامع يؤمن بأهمية محاربة الاستعمار وتحقيق حلم الوحدة الأفريقية. ولعل ذلك هو ما دفع بمزروعي لمصاف الريادة الفكرية في مشروعات نهضة أفريقيا المستقلة. انظر: حمدي عبد الرحمن، ««علي مزروعي»: رائد الأفروعربية،» **الأهرام،** ٢١/١٠/٢٠١٤.

(٣) يطلق مزروعي على العلاقات التاريخية والجغرافية المستمرة بين أفريقيا والجزيرة العربية اسم أفرابيا. ومن وجهة نظره سوف تدفع الأوضاع الجيوبوليتيكية المتغيرة في النظام العالمي الجديد إلى دعم هذه الروابط والهويات المشتركة عبر ساحل الصحراء والبحر الأحمر. يؤدي ذلك كله إلى صهر كل من العروبة والأفريقانية في بوتقة واحدة هي أفرابيا. لمزيد من التفصيلات، انظر: Ali A. Mazrui, «AFRABIA: Africa and the Arabs in the New World Order,» *Ufahamu: Journal of the African Activist Association,* vol. 20, no. 3 (1992), pp. 51-62.

(٤) حلمي شعراوي، ««علي المزروعي» .. حالة أفريقية عربية،» **الاتحاد،** ٢٦/١١/٢٠١٤، <http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=82359>.

(٥) Ali A. Mazrui, *African Thought in Comparative Perspective* (Newcastle Upon Tyne: Cambridge Scholars Publishing, 2014), p. xi, <http://public.eblib.com/choice/publicfullrecord.aspx?p=1661251>.

أدت هذه القناعات الفكرية لعلي مزروعي إلى اصطدامه بأيديولوجيا التنمية السائدة في أفريقيا بعد الاستقلال. هنا يمكن أن نتذكر نقده السياسي اللاذع لكل من كوامي نكروما في غانا وجوليوس نيريري في تنزانيا، وكذلك معارضته لنمط الحكم التسلطي الذي جسده نظام عيدي أمين في أوغندة(٦). ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد حيث دخل مزروعي في معارك ثقافية مع رموز الثقافة اليسارية في أفريقيا أمثال والتر رودني (Walter Rodney) وأرشي مافيجا (Archie Mafeje). ويبدو أن السلسلة التلفزيونية التي قدمها مزروعي في أوائل الثمانينيات بعنوان «الميراث الثلاثي»، كانت بمنزلة رؤية حضارية بديلة لإعادة كتابة بعض جوانب التاريخ الأفريقي. غير أنها جعلته يدخل في عراك فكري مفتوح مع عملاق الأدب الأفريقي وولي سوينكا، الحائز جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٦، إذ رأى سوينكا أن أفكار مزروعي قوَّضت المساهمات الكبرى للأديان والثقافات التقليدية الأفريقية في مقابل إبراز دور العامل الإسلامي. لقد أشار سوينكا باستهزاء إلى أن مزروعي ليس فقط مُستعرباً من الناحية الثقافية، ولكنه قبل ذلك كله عربي الدم والهوى. وتُظهر القراءة الواعية للنصوص المتبادلة بين مزروعي وسوينكا أن الأخير يكرر بعض الآراء السلبية عن دور الإسلام في أفريقيا، التي يجدها المرء في الكتابات الاستعمارية: مثل القول إن الإسلام غير عقلاني فُرض على الأفارقة بحد السيف. ولعل الأهم من ذلك، أن سوينكا كان على استعداد لتشويه سمعة باحث كبير في التاريخ الأفريقي بحجم مزروعي بحجة أنه مسلم ومتعاطف مع الثقافة العربية ـ الإسلامية(٧).

إن الأفرابيا واجهت تحديات خطيرة في العصر الاستعماري؛ إذ دأبت الدول الغربية على تقطيع أواصر الالتقاء والتلاحم بين الكيانين العربي والأفريقي بشتى السبل.

انطلاقاً من هذا السياق الفكري والسياسي المعقد الذي عبرت عنه أجواء الحرب الباردة وبروز أزمة أفريقيا الاقتصادية في أواخر السبعينيات، يحاول علي مزروعي العودة إلى الجذور والتعامل

(٦) في ١٩٦٦ وصف مزروعي الرئيس الغاني نكروما بأنه قيصر لينيني، فقد استدعى خبرة روسيا ما بعد القيصرية للحكم على خبرة نكروما السياسية. وتظهر هذه المقابلة أن كلاً من نكروما ولينين قد ربط بين تحقيق التحول الاشتراكي والدور المحوري الذي تقوم به آلة الحزب. وبينما كانت الطليعة تقود حزب لينين فإن نكروما ترك حزبه للجماهير. بيد أن نكروما سرعان ما استغنى عن الجماهير بعد الاستقلال. وعليه عندما تخلص نكروما من معارضيه وركن إلى نظام الحزب الواحد صار قيصراً روسياً. انظر في ذلك: Ali A. Mazrui, «Nkrumah: The Leninist Czar,» *Transition: A Journal of the Arts, Culture and Society,* no. 26 (1966), pp. 9-17.

(٧) يمكن القول إن انتقادات وولي سوينكا للإسلام تعد جزءاً من تيار فكري يمكن تسميته الاستشراق الأسود. فالقضية المحورية هنا هي الإسلام والهوية الأفريقية السوداء، إذ يؤكد بعض الدارسين والكتاب الأفارقة أن اعتناق الأفارقة والأمريكيين من أصول أفريقية الإسلام إنما يعبر عن شكل من أشكال الردة الثقافية. ويزعم هذا التيار الفكري المتطرف أن جميع الأيديولوجيات «الغريبة» على الواقع الأفريقي مثل الإسلام، قد جلبت الدمار وعدم الاستقرار سواء في الداخل الأفريقي أو في الشتات. انظر: George Lang, «Through a Prism Darkly: «Orientalism» in European-Language African Writing,» in: Kenneth Harrow, ed., *Faces of Islam in African Literature* (Portsmouth, NH: Heinemann, 1991).

بحسم مع إشكاليات الهوية والانتماء في مرحلة بناء الدولة الوطنية . فقد لجأ إلى بناء إطار تحليلي لعلاقات القوة والثقافة في إطار ميراث أفريقيا الثلاثي. وعليه فقد كان مؤتمر الشارقة، كما يقول حلمي شعراوي، بداية حقيقية للحوار الثقافي العربي ـ الأفريقي. فقد طُرحت كل القضايا البالغة الحساسية على طاولة الحوار مثل الرق والبترودولار والتبعية الأفريقية للفرنكوفونية والتردد الأفريقي في مساندة القضية الفلسطينية.

يطرح مزروعي مفهوم أفرابيا كإطار تحليلي شامل يؤكد عمق الروابط الثقافية التي تجمع بين العرب والأفارقة. وهو يتضمن جانباً تصالحياً يتجاوز لحظات العداء وعوامل الفرق.

لقد طرح مزروعي مشروعاً ثقافياً متعدد الجوانب أطلق عليه اسم **أفرابيا** ليتجاوز من خلاله كافة أبعاد الصراع مثل الرق وثورة زنجبار ويخلق حالة اندماجية تعبر عن التفاعل الثقافي العربي ـ الأفريقي(٨). فالإسلام والعروبة هما الأوسع انتشاراً في الواقع الأفريقي. كما أن تاريخ علاقة أفريقيا بكل من العروبة والإسلام لم يشهد أي تصادم حقيقي مثل خبرة العلاقة مع الغرب الأوروبي.

يجادل مزروعي أن كلاً من العرب والأفارقة كانوا يعيشون في قارة واحدة قبل الانفصال الجيولوجي لأفريقيا عن شبه جزيرة العرب، الذي تم بفعل ظهور البحر الأحمر. وقد اكتمل هذا الانفصال بين الكيانين في القرن التاسع عشر مع حفر قناة السويس. وعلى الرغم من ذلك فإن حجم التفاعلات بين الشعبين العربي والأفريقي عبر هذه الحقبة الجيولوجية والتاريخية الطويلة قد تجاوز عملية الانفصال العضوي التي سببها وجود البحر الأحمر. يعني ذلك أن خبرة التفاعل والعيش المشترك لأحقاب وفترات تاريخية طويلة أدت إلى ظهور الأفرابيا والمجتمعات الأفروعربية.

ويحدد مزروعي أربعة أنماط من الجماعات الأفروعربية، وفقاً لمحددات أربعة، على النحو التالي(٩):

• **المحدد الأول**، المحدد الثقافي، ويشمل الجماعات والشعوب التي تتألف ثقافاتها من تمازج التقاليد الأفريقية والمواريث العربية ـ الإسلامية. ولعل أبرز مثال على ذلك أفريقيا الإسلامية

---

(٨) إن الثورة الدموية التي شهدتها زنجبار بعد شهر واحد من حصولها على الاستقلال عام ١٩٦٣ تعبر عن أوج الصدام بين العرب والأفارقة. وربما تعكس هذه المقابلة بين الأفريقي والعربي في زنجبار في أحد جوانبها خبرة تجارة الرقيق في القرن التاسع عشر. وعليه فإن حالة زنجبار تستدعي جميع الصور السلبية المتبادلة في الذاكرة الجماعية لكل من الشعبين العربي والأفريقي. انظر في ذلك: اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ أفريقيا العام، **المجلد الثامن: أفريقيا منذ عام ١٨٣٥**، إشراف علي مزروعي وك.ووندجي (باريس: اليونسكو، ١٩٩٨)، ص ٢٧٢.

(٩) Ali A. Mazrui, «Pan Africanism and the Intellectuals: Rise, Decline and Revival,» in: Thandika Mkandawire, ed., *African Intellectuals: Rethinking Politics, Language, Gender and Development* (Dakar: Codesria Books, 2005), pp. 66-67.

والشعوب الناطقة بلغات الهوسا والسواحيلي والصومال. إن هذه الشعوب لا تتحدث بلسان عربي مبين ولكنها تعكس في ثقافتها السائدة الطابع العربي والإسلامي.

• **المحدد الثاني**، محدد النسب والمصاهرة، ويشمل الجماعات التي انحدرت من دماء عربية وأفريقية. ولعل عائلة المزروعي نفسه خير مثال على ذلك، إضافة إلى سالم أحمد سالم الذي شغل منصب الأمين العام لمنظمة الوحدة الأفريقية (الاتحاد الأفريقي حالياً) لفترة زمنية طويلة.

• **المحدد الثالث**، محدد الجغرافيا، وهو يشمل الدول الأفريقية التي تتمتع بعضوية الجامعة العربية. وقد تكون العروبة هي السمة الغالبة في بعض هذه الدول مثل مصر وتونس في حين تتعايش العروبة مع عناصر أخرى أفريقية في دول أخرى مثل موريتانيا والصومال وجزر القمر.

• **المحدد الرابع**، المحدد الأيديولوجي، ويشمل كل الجماعات والأفراد الذين يؤمنون بضرورة وحدة العرب والأفارقة، بغض الطرف عن وجود مواريث ثقافية ودينية مشتركة. ويعتبر الرئيس كوامي نكروما أبرز مثال على هذا النمط. أضف إلى ذلك فإن زعماء الرعيل الأول من حركة الوحدة الأفريقية، أمثال جمال عبد الناصر وأحمد سيكوتوري، قد آمنوا بأن الصحراء الأفريقية لا تعد عامل تقسيم وإنما هي في حقيقة أمرها جسر للتواصل ونقل الأفكار والسلع بين شمالها وجنوبها.

وإذا كانت الأفرابيا هي نتاج الجغرافيا والجيولوجيا فإن المجتمعات الأفروعربية هي نتاج التاريخ والعلاقات والتفاعلات المشتركة. وقد أسهم في تحقيق هذا التلاحم البشري بين الكيانين العربي والأفريقي ثلاث قنوات رئيسية للاتصال: **أولها**، منطقة شرق أفريقيا، بما في ذلك القرن الأفريقي الكبير، حيث اتسعت العلاقات بين العرب والأفارقة في هذه المنطقة لتشمل منطقة المحيط الهندي بأسرها. ويرجع تفاعل العرب، تجارة وهجرة، مع منطقة ساحل شرق أفريقيا إلى ما قبل العهد المسيحي. أما قناة الاتصال **الثانية** فتتمثل بحوض النيل الذي يمثل شريان الحياة لكثير من المجتمعات العربية والأفريقية، بدليل أنه أدى إلى تأسيس دولة أفروعربية وهي السودان. وتمثل منطقة ساحل الصحراء وغرب أفريقيا قناة الاتصال **الثالثة** بين الشعبين. فتاريخ العلاقات التجارية بين العرب والبربر في شمال الصحراء والأفارقة في جنوبها قديم ومعروف[١٠].

وعلى الرغم من ذلك كله فإن الأفرابيا واجهت تحديات خطيرة في العصر الاستعماري؛ إذ دأبت الدول الغربية على تقطيع أواصر الالتقاء والتلاحم بين الكيانين العربي والأفريقي بشتى السبل. ومن ذلك القضاء على العلاقات والمواريث المشتركة بين الطرفين وإعادة توجيه الاقتصادات العربية والأفريقية لربطها بالدول الغربية. كما أن الغرب حاول دائماً خلق جذور العداء والصراع بين شعوب المنطقة وقد اتضح ذلك بجلاء في دول مثل السودان وموريتانيا وتنزانيا. وهذه ادعاءات تم تكريسها وفق أسس ودعاوى دينية وعرقية وثقافية.

---

(١٠) Ali A. Mazrui, *Africanity Redefined*: *Collected Essays of Ali A. Mazrui* (Trenton: Africa World Press, 2002), vol. 1, pp. 89-90.

ثانياً: الأفرابيا كإطار ثقافي وحدوي

يستعير مزروعي من تراث الاشتراكية اللينينية فكرة الحتمية الفكرية وذلك في سعيه لإثبات أهمية دور المثقفين في حركة الوحدة الأفريقية. وفي هذا السياق يمكن القول إن الأفرابيا من دون المثقفين تصبح مجرد تعبير بلاغي لا قيمة له. وعليه فإن مهمة إعادة أفرقة شبه الجزيرة العربية تقع على كاهل المثقفين العرب والأفارقة قبل أن تنتقل إلى قلوب الناس وعقولهم. يجادل مزروعي:

«إن طغيان البحر هو في جزء منه تعبير عن جبروت التحيزات الجغرافية الأوروبية. تماماً كما قرر واضعو الخرائط الأوروبيون أن أوروبا تأتي فوق أفريقيا بدلاً من تحتها ... فإنهم يستطيعون كذلك اعتبار أفريقيا تقف في حدودها عند البحر الأحمر بدلاً من الخليج العربي. ألم يحن الوقت بعد من أجل التخلص من هذا الطغيان المزدوج لكل من البحر والجغرافيا ذات المركزية الأوروبية؟»[(١١)].

ويطرح مزروعي مفهوم أفرابيا كإطار تحليلي شامل يؤكد عمق الروابط الثقافية التي تجمع بين العرب والأفارقة. وهو يتضمن جانباً تصالحياً يتجاوز لحظات العداء وعوامل الفرقة، مثل ذكريات ثورة زنجبار والتورط العربي في تجارة الرقيق. لذلك يشير مزروعي إلى نموذجين للمصالحة والوفاق بعد حالة من العداء والصدام الحاد في التاريخ المعاصر: **أولهما** النموذج الأنكلو أمريكي؛ و**ثانيهما** هو النموذج الأمريكي ـ الياباني.

وإذا كانت المصالحة التاريخية بين بريطانيا والولايات المتحدة بطيئة وعميقة (استغرقت نحو قرن من الزمان) فإن المصالحة اليابانية ـ الأمريكية كانت سريعة وسطحية. ويرى مزروعي أن المصالحة العربية ـ الأفريقية التي تقوم على نسيان آلام الماضي ينبغي أن تكون أكثر بطئاً من النموذج الأنكلو أمريكي، في نفس الوقت الذي تكون فيه أكثر عمقاً من النموذج الأمريكي ـ الياباني.

تكمن أهمية هذا الطرح الفكري والثقافي في ضوء الجدل الأفريقي السائد نتيجة التوترات العربية ـ الأفريقية. فالإنتاج الفكري على الجانب الأفريقي لا يزال في معظمه ينظر إلى دخول الإسلام بوصفه غزواً عربياً أو مغربياً هدفه فرض الأسلمة والتعريب على الشعوب الأفريقية[(١٢)]. ويذهب العالم الأنثروبولوجي كويسي براه إلى القول إن اللغة العربية ليست من بين اللغات الأفريقية المحلية. يقول في ذلك: «إن مشكلة الانقسام الثقافي الأفريقي والعربي تتمثل بأنه يتسم تاريخياً ـ من بين العديد من الأشياء الأخرى ـ بممارسة العرب أدوار الهيمنة والاستعباد والقهر

---

(١١) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(١٢) لقد نظرت بعض النخب الأفريقية المستغربة التي عانت ظاهرة العرب فوبيا إلى الصحراء الأفريقية باعتبارها حائطاً منيعاً في مواجهة الاختراق العربي للداخل الأفريقي. انظر: Dunstan M. Wai, «African-Arab Relations: Interdependence or Misplaced Optimism?,» *The Journal of Modern African Studies: A Quarterly Survey of Politics, Economics and Related Topics in Contemporary Africa,* vol. 21, no. 2 (1983), pp. 187-213.

في مواجهة الأفارقة. ولا يزال العرب حتى اليوم يستعبدون الأفارقة في مناطق التماس الحدودية العربية ـ الأفريقية. علينا ألّا نضع رؤوسنا في الرمال ونتظاهر بأن هذا ليس هو الحال»[(١٣)].

لم يختلف الوضع في حالة الصور السلبية المتبادلة التي سادت بسبب سياسات الدولة الوطنية بعد الاستقلال، إذ يجادل كثير من الكتاب الأفارقة، مثل غاربا ديالُلو، بأهمية دراسة حالة الانقسام الثقافي والتحيزات العنصرية في مناطق التماس العربي ـ الأفريقي على طول الساحل الغربي للصحراء الأفريقية[(١٤)]. فثمة شعور بالاستعلاء العنصري من جانب مجتمعات «البيضان» من العرب والمور تجاه مجتمعات «السودان» من الفولاني والولوف والتكولور على طول الحدود الموريتانية. كما أن استخدام الأسماء المستعارة التي تحمل دلالات عنصرية وصوراً ذهنية سلبية عن الآخر بين الجماعات العرقية في مالي، مثل الطوارق والمور والعرب والصونغاي، تعبر في حقيقتها عن أجواء الشك وعدم الثقة والإحساس بعدم الأمن، وهو ما يعوق التنمية والنهضة في هذه المجتمعات. يجادل غاربا ديالُلو بقوله: «اتسم تاريخ العلاقات العربية ـ الأفريقية في السودان وموريتانيا بغلبة حالات الحروب الطاحنة والرق والأسلمة القسرية والتعريب، والتدمير المنهجي للثقافات المحلية والقيم والحضارات إضافة إلى التوسع الإقليمي النهم من جانب المهاجرين. وكما كان عليه الحال في كل من جنوب أفريقيا وزيمبابوي، فقد تركت القوى الاستعمارية السلطة في أيدي المستوطنين في كل من موريتانيا والسودان»[(١٥)].

يلاحظ المتابع لمسيرة العلاقات الأفريقية ـ العربية منذ نحو خمسين عاماً خلت أنها تطرح دائماً إشكالية الفرص الضائعة، ربما بسبب غلبة السياسي على الاقتصادي في الحوار الاستراتيجي بين العالمين العربي والأفريقي.

يرفض مزروعي هذا الانقسام الثقافي المصطنع بين العرب والأفارقة، وذلك من أجل تشكيل جبهة موحدة ضد ما أسماه نظام الفصل العنصري العالمي (Global Apartheid). فالنظام العالمي الجديد أدى إلى وجود اتجاهين واضحين، **أولهما** يتمثل بزيادة معدلات الضحايا العرب والمسلمين في مناطق التوتر الكبري مثل فلسطين والعراق وسورية وليبيا وأفغانستان واليمن. أما **الثاني** فتعبر عنه المعاناة الاقتصادية للسود نتيجة استمرار الدعم الغربي للنظم الفاسدة في أفريقيا، إضافة إلى التقسيم غير العادل للعمل على الصعيد الدولي. يعني ذلك أن مزاعم الحرب على الإرهاب ورفع شعارات التدخل الدولي الإنساني تهدف إلى إعادة الصياغة الجيوستراتيجية للعالم غير الغربي، كما

---

(١٣) Kwesi Prah, «A Pan-Africanist Reflection: Point and counterpoint,» Pambazuka (22 October 2008), <http://www.pambazuka.org/pan-africanism/pan-africanist-reflection-point-and-counterpoint>.

(١٤) Garba Diallo, *Mauritania, the Other Apartheid?* (Uppsala, Sweden: Nordiska Afrikainstitutet, 1993), pp. 18-22.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٦.

هو واضح في طبيعة التحالفات الإقليمية والدولية الجديدة بعد ثورات الربيع العربي. عندئذ تبدو أفرابيا جزءاً من الحل من أجل مواجهة تحديات هذا النظام الدولي غير العادل.

إن التفاعل الثقافي العربي ـ الأفريقي له جوانب إيجابية متبادلة. ففي النصوص المقدسة المكتوبة بالحرف العربي سورابي (Sorabe) تأكيد للمؤثرات العربية لدى قبائل جنوب شرق مدغشقر ولا سيّما قبائل الأنتيمورو (Antaimoro)(١٦). وطبقاً لهذا التراث الشعبي المكتوب فإن مجموعة من المسلمين هاجرت من مكة في شبه الجزيرة العربية إلى جزر القمر، ومن هناك ارتحلت إلى جزيرة مدغشقر حيث استقر بها المقام على ضفاف نهر ماتيتانانيا (Matitanania). ولا يزال هذا الكتاب المقدس يحظى بالتقدير ويتبرك به الناس رغم عدم وضوح محتواه الإسلامي. ويحتفظ أفراد قبيلة الأنتيمورو حتى اليوم ببعض الروابط العربية في أحاديثهم من خلال ما يطلق عليه اسم «Antesitesy kalamon» أي لغة أهل الرمال، وهي مفردات عربية في إطار مورفولوجيا الملاغاشية.

إن بداية الألفية الجديدة والتحولات الكبرى التي شهدتها منظمة الوحدة الأفريقية وتحولها إلى الاتحاد الأفريقي عام ٢٠٠٢ قد دفعت جميعها إلى إعادة الاعتبار مرة أخرى للتعاون العربي ـ الأفريقي.

واللافت للانتباه أن هذا التواصل الحضاري الذي لم يعبِّر أبداً عن هيمنة ثقافية (كما يحاول البعض أن يصوره) موجود أيضاً في التراث الشعبي لغرب أفريقيا. ففي السيرة الملحمية لشعوب الماندينغو في غرب أفريقيا المعروفة باسم سونجاتا (Sunjata) تأثر واضح بالتراث العربي ـ الإسلامي(١٧)، إذ تكشف قصة صعود الملك سونجاتا أو سونديانا في بعض الروايات إلى السلطة التاريخ المبكر لملك الماندنغو. كما تروي كذلك مغامرات بناء مملكة مالي القديمة وقصة ذهاب الملك وعودته من رحلة الحج المقدسة. وهذا التواصل الثقافي الذي جسدته الهجرات البشرية المتبادلة بين شبه الجزيرة العربية وأفريقيا (أشار إليه مزروعي في مفهوم أفرابيا) هو ما تكشفه ملحمة السونجاتا. فطبقاً للراوي رحل أحد أبناء بلال، مؤذن الرسول، من مكة إلى غرب أفريقيا.

وفي المقابل العربي للسير الشعبية الأفريقية نجد أن سيرة عنترة بن شداد التي تماثل سيرة هوميروس في الأدب الغربي تحمل معنى تصالحياً وتعبر عن التعايش المشترك بين العرب والأفارقة. ولعل القراءة الاجتماعية والثقافية لقصة عنترة في الأدب العربي تُظهر أنها نموذج واضح لتعايش الأعراق المتعددة. كانت والدته أمة أثيوبية تدعى زبيبة بينما كان والده زعيماً لقبيلة عبس

---

(١٦) Kees Versteegh, «Arabic in Madagascar,» *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* (University of London), vol. 64, no. 2 (2001), pp. 177-187.

(١٧) سونجاتا كيتا قصة ملحمية شعرية محورها البطل الأسطوري مؤسس إمبراطورية مالي. وتعتمد هذه القصة على التقاليد الشفاهية التي يتناقلها الرواة منذ القرن الرابع عشر. انظر في ذلك: Philip Wolny, *Discovering the Empire of Mali* (New York: Rosen Publishing, 2014), p. 14.

العربية. ويعتبر عنترة واحداً من أعظم شعراء العربية في عصر ما قبل الإسلام[١٨]. وتكشف قصائد عنترة روح التسامح والمصالحة في التراث العربي القديم:

مَا زِلتُ أُنصِفُ خَصمِي وَهوَ يَظلُمُنِي حَتَّى غَدا مِن حُسَامي غَيرَ مُنتَصِفِ
وَإِن يَعيبوا سَواداً قَد كُسيتُ بِهِ فَالدُّرُّ يَستُرُهُ ثَوبٌ مِنَ الصَّدَفِ

ويقول في قصيدة أخرى:

تُعَيِّرني العدا بسوادِ جلدي وبيضُ خصائلي تحمي السّوادا

وفي مقابل روح التسامح التي تعبِّر عنها سيرة عنترة يمكن أن نجد حالات أخرى للصراع والهيمنة بين العرب والأفارقة. فصورة العبد الأسود تمتلئ بها صفحات الأدب العربي. فقد كانت الصدامات العربية ضد الأحباش في اليمن ونجران أحد أسباب وجود الموجات الأولى من العبيد الأفارقة في الجزيرة العربية. على أن ذلك التناقض في الصور المتبادلة يستدعي كما يقول حلمي شعراوي بذل المزيد من الجهد في دراسات سوسيولوجيا الثقافة العربية ـ الأفريقية.

ثالثاً: تحديات أفرابيا في عالم متحول

يلاحظ المتابع لمسيرة العلاقات الأفريقية ـ العربية منذ نحو خمسين عاماً خلت أنها تطرح دائماً إشكالية الفرص الضائعة ربما بسبب غلبة السياسي على الاقتصادي في الحوار الاستراتيجي بين العالمين العربي والأفريقي أو بسبب التكالب الدولي المستمر على اكتساب الثروة والنفوذ في الفضاء الأفروعربي[١٩]. لقد مثلت قضايا الاستعمار وتحديات بناء الدولة الوطنية واستلهام روح عدم الانحياز وباندونغ، إضافة إلى اقتصادات مياه النيل وإشكاليات الصراع والتنمية المستدامة في ظل سياسات العولمة وإعادة انتاج سياسات الهيمنة الاستراتيجية على الصعيد الدولي، أبرز محاور الحوار الاستراتيجي بين العرب والأفارقة. وعليه فقد كانت أخطاء أعوام السبعينيات حجر عثرة أمام تنفيذ آليات العمل العربي ـ الأفريقي المشترك التي أقرتها القمة الأفروعربية الأولى في القاهرة عام ١٩٧٧. ومن جهة أخرى فإن شخصية الرئيس الليبي الراحل معمر القذافي ورغبته في القيادة والسيطرة قد دفعت بقمة سرت الأفروعربية الثانية عام ٢٠١٠ لتصبح مجرد منبر إعلامي لا يتجاوز دلالاته الرمزية والسياسية.

فهل يمكن القول إن القمة الأفروعربية الثالثة التي عقدت في الكويت في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٣ تشكل تحولاً فارقاً في الوعي العربي ـ الأفريقي المشترك؟ لعل من المفارقات التي

(١٨) Peter Heath, *The Thirsty Sword: Sīrat ʻAntar and the Arabic Popular Epic* (Salt Lake City: University of Utah Press, 1996).

(١٩) حمدي عبد الرحمن، «العلاقات العربية الأفريقية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة: نحو إطار استراتيجي جديد للقرن الحادي والعشرين،» **قضايا استراتيجية** (دمشق)، العدد ٢ (حزيران/يونيو ٢٠٠٠).

تثير التعجب والاستغراب في آن واحد هو تأخر هذه القمة نحو ٣٣ عاماً حيث كان من المقرر أن تعقد القمة الأفروعربية الثانية في الكويت عام ١٩٨٠، أي بعد أعوام ثلاثة من قمة القاهرة الأولى. ومن جانب آخر فإن مصر التي احتضنت حركة الوحدة الأفريقية وأسهمت بدور محوري في تبني منظومة التعاون العربي ـ الأفريقي من خلال استضافتها للقمة الأفروعربية الأولى في القاهرة وجدت نفسها تحضر قمة الكويت بوصفها أحد أعضاء الجامعة العربية نظراً إلى تجميد عضويتها في الاتحاد الأفريقي عقب إطاحة نظام الرئيس محمد مرسي في تموز/يوليو ٢٠١٣.

على أية حال، فإن خصوصية وأهمية قمة الكويت الأفروعربية الثالثة، من منظور أفرابيا، تنبع من عدة اعتبارات أساسية، لعل من أبرزها:

ـ التغيرات العارمة التي شهدها النظام الإقليمي العربي في عام ٢٠١١ بعد ثورات الربيع العربي التي انطلقت في مصر وتونس وليبيا وسورية واليمن وغيرها من البلدان العربية. ولعل الدلالة الكبرى هنا تشير إلى مدى تلاحم الدول العربية والأفريقية في التطلع نحو التحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وأحسب أن الربيع الأفريقي الذي بدأ في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي يسبق ربيع العرب، وهو ما يعني إمكان استلهام بعض تجارب وقصص النجاح الأفريقية الكبرى مثل غانا وبوتسوانا ونيجيريا وجنوب أفريقيا وكينيا وبوركينا فاسو.

ـ الصراعات الكبرى التي تمثل تحدياً للنظام الأمني العربي ـ الأفريقي، مثل الصومال ودارفور وشمال مالي، تطرح أهمية التنسيق والبحث عن حلول عربية أفريقية لها من دون تدخل أطراف خارجية. وأحسب أن هذه التحديات الأمنية الكبرى تقضي بضرورة البحث عن نظام أمني عربي ـ أفريقي مشترك للتدخل في مناطق التوتر والصراع بغية حفظ وصنع السلام.

ـ تغير طبيعة توازن القوى في مناطق التماس العربي ـ الأفريقي، ومثال ذلك منطقتا القرن الأفريقي وحوض النيل، وهو ما يعني ضرورة تأسيس الحوار العربي ـ الأفريقي على قواعد ومعايير جديدة. على سبيل المثال، بينما شهدت الصياغة الجيواستراتيجية الجديدة للفضاء العربي ـ الأفريقي تراجعاً للدورين المصري (بعد سقوط نظام مبارك) والسوداني (بعد انفصال الجنوب) وتفتيت الصومال بعد فرض الإرادة الدولية عليه عام ٢٠١٢ فإن إثيوبيا ودول شرق أفريقيا شهدت نهوضاً ملحوظاً ودعماً دولياً واضحاً، وهو ما يعني ضرورة إعادة التفاوض في شأن توزيع مياه النيل.

ـ محاولة إسرائيل اختراق منظومة الأمن الجماعي الأفريقي من خلال محاولاتها الدعوية الالتحاق كعضو مراقب في الاتحاد الأفريقي[٢٠]. وعلى الرغم من أن المحاولات الإسرائيلية قد باءت بالفشل إلا أنها تحاول جاهدة، من خلال وسطاء أفارقة أبرزهم نيجيريا وإثيوبيا وكينيا، الفوز بعضوية الاتحاد الأفريقي في دورته المقبلة. ومن الواضح كما أبرزت حادثة الهجوم الذي وقع في أيلول/سبتمبر الماضي على مركز وست غيت التجاري في نيروبي أن إسرائيل تمتلك نفوذاً قوياً في دول حوض النيل.

---

(٢٠) حمدي عبد الرحمن، **الاختراق الاسرائيلي لأفريقيا** (الدوحة: منتدى العلاقات الدولية، ٢٠١٥).

ـ التكالب الدولي الجديد على الموارد الأفريقية وظهور سياسات جديدة لإعادة إنتاج الهيمنة الدولية على أفريقيا وفقاً لآليات وأدوات جديدة. فإنشاء القيادة الأفريقية (أفريكوم) عام ٢٠٠٨ ووجود معسكرات أمريكية في جيبوتي والنيجر، إضافة إلى التدخل العسكري الفرنسي والغربي المباشر في الصراعات الأفريقية، يمثل تهديداً مباشراً للأمن الجماعي العربي والأفريقي. كما أن محاولات الصين وبعض القوى الصاعدة الأخرى في النظام الدولي كسب النفوذ والسيطرة في أفريقيا تمثل هي الأخرى تحديات لمنظومة العلاقات العربية ـ الأفريقية.

إن التركيز على مصادر الثقافة العجمية في التراث الأفريقي يعد أحد المداخل الاستراتيجية التي يمكن البناء عليها. يقصد بذلك عملية استخدام الحرف العربي في كتابة اللغات الأفريقية.

وإذا أخذنا في الحسبان طبيعة التحديات الاقتصادية والأمنية والسياسية التي تواجهها الشعوب العربية والأفريقية لوجدنا أن الاستجابة لروح مشروع النهضة الأفريقية كما أسس له رئيس جنوب أفريقيا السابق ثابو مبيكي وطموحات المبادرة الجديدة للتنمية في أفريقيا (النيباد) عام ٢٠٠١ تعني ضرورة الانحياز لخيار التعاون العربي ـ الأفريقي وفقاً لمنظور الشراكة والمصالح المشتركة. هذه كلها دوافع ومحفزات لتبني مشروع أفرابيا كعامل اندماج وتلاحم في مواجهة هذه التحديات.

رابعاً: ما الذي حدث خطأ في مسيرة أفرابيا؟

كان المأمول في السبعينيات من القرن المنصرم إضفاء الطابع المؤسسي على أفرابيا، أي تتحول من الإطار الفكري والأيديولوجي لتصبح واقعاً ملموساً من خلال مؤتمر القاهرة عام ١٩٧٧. وخلال هذه الفترة تحدَّث البعض عن «استراتيجية سلة الغذاء» حيث تساعد الدول الأفريقية الغنية بمواردها الطبيعية على تحقيق الأمن الغذائي العربي في حين تساعد البلدان العربية النفطية الغنية على توفير الدعم المالي والتنموي اللازم لنهضة أفريقيا.

ويمكن فهم الاتجاه الحماسي لدعم التعاون العربي ـ الأفريقي خلال هذه المرحلة التأسيسية استناداً إلى عدة اعتبارات لعل من أبرزها: التوكيد المشترك على أهمية الاعتماد الجماعي على الذات لمواجهة تحديات التنمية في العالمين العربي والأفريقي، واحتلال إسرائيل عام ١٩٦٧ أراضي أفريقية وهو ما جعل كثيراً من الدول الأفريقية تقطع علاقاتها معها عقب حرب ١٩٧٣. يقول الرئيس أحمد سيكوتوري[٢١]:

«إن دعمنا للقضايا العربية ينبع من مسألة التضامن العربي ـ الأفريقي التي كانت تشكل دائماً ركيزة أساسية لسياسة غينيا. ولا يعتمد هذا الدعم على أي مكافآت مالية تدفع لنا من قبل العرب.

(٢١) Anthony Sylvester, *Arabs and Africans: Co-operation for Development* (London: Bodley Head, 1981), p. 199.

لقد وقفنا من قبل مع العرب لأننا اعتقدنا أنهم كانوا على حق، وليس لأننا توقعنا منهم أي مكاسب مالية. ولا أدَل على ذلك من قيام غينيا بقطع علاقاتها مع إسرائيل عام ١٩٦٧ عندما بدأت الدولة الصهيونية عدوانها ضد العرب. فعلنا هذا على الفور، دون التفكير في العواقب المترتبة على هذا الإجراء، مثل توقع الحصول على مساعدة مالية من الدول العربية الغنية بالنفط. لقد قررنا قطع العلاقات مع إسرائيل حتى لو طلبت منا الدول العربية ذاتها عدم القيام بذلك. أود أن أقول لأولئك الذين يحاججون بأننا نتعاون مع العرب من أجل المال: إننا شعب متدين، يؤمن بالله، ولدينا شعور عميق بالكرامة والمسؤولية. نحن لسنا انتهازيين ولا متسولين بغض النظر عن كوننا فقراء».

ومع ذلك فإن المتغير الأهم في العلاقة مع أفريقيا خلال حقبة السبعينيات من القرن الماضي هو الدعم المالي العربي الذي يتضح من تأسيس بعض المؤسسات التمويلية والتنموية مثل البنك العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا عام ١٩٧٤، والصناديق العربية للمساعدات المالية والفنية المقدمة إلى الدول الأفريقية.

لقد أصدرت القمة الأفروعربية الأولى بالقاهرة أربع وثائق مهمة هي:

١ ـ الإعلان السياسي الذي شدد على أهمية استناد التعاون على ميثاق كل من الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية، وهو ما يعني مساندة كفاح الشعب الفلسطيني ومواجهة نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا.

٢ ـ برنامج عمل التعاون العربي ـ الأفريقي ولا سيَّما في المستويات القطاعية المختلفة.

٣ ـ تنظيم وطريقة تحقيق التعاون العربي ـ الأفريقي حيث تم الاتفاق على إنشاء المجلس الوزاري المشترك الذي يعقد جلساته دورياً كل ١٨ شهراً في حين يعقد مجلس رؤساء الدول اجتماعاته كل ثلاث سنوات. إضافة إلى ذلك فقد تم تأليف اللجنة الدائمة للتعاون العربي ـ الأفريقي، وهي مؤلفة من ٢٤ عضواً نصفهم من أفريقيا والنصف الآخر من الوطن العربي. وتعقد هذه اللجنة اجتماعاتها كل ستة أشهر لمتابعة تنفيذ قرارات التعاون العربي ـ الأفريقي.

٤ ـ قرار التعاون المالي والاقتصادي الذي ظل من الناحية الواقعية مجرد إعلان نيات من الجانب العربي بدعم الدول الأفريقية مالياً واقتصادياً.

ومع ذلك فقد باءت هذه الجهود بالفشل وضاعت على كل من العرب والأفارقة فرصة تاريخية لشراكة استراتيجية حقيقية. وربما يعزى ذلك إلى تغليب الاعتبارات السياسية وسيادة مفاهيم الابتزاز وعدم المساواة في الحوار التفاوضي بين طرفي العلاقة. على سبيل المثال، كانت المساعدات العربية لأفريقيا مشروطة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بمواقف الدول الأفريقية الداعمة للقضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينية. أضف إلى ذلك أن قيام مصر بتوقيع اتفاقيات كامب دايفيد عام ١٩٧٩ وتجميد عضويتها في الجامعة العربية قد أدى إلى غياب دورها المحوري الداعم لمسيرة العلاقات العربية ـ الأفريقية. من جهة ثالثة مثلت قضية الصحراء الغربية بين المغرب والجزائر ومغامرات ليبيا العسكرية في تشاد حجر عثرة أخرى أمام دعم وتنفيذ خطة عمل التعاون العربي ـ الأفريقي التي أقرتها القمة الأفروعربية الأولى.

من الواضح أن بداية الألفية الجديدة والتحولات الكبرى التي شهدتها منظمة الوحدة الأفريقية وتحولها إلى الاتحاد الأفريقي عام ٢٠٠٢ قد دفعت جميعها إلى إعادة الاعتبار مرة أخرى للتعاون العربي ـ الأفريقي. وربما ساعدت شخصية العقيد الليبي الراحل معمر القذافي وتطلعه إلى ممارسة دور قيادي في أفريقيا إلى انعقاد القمة الأفروعربية الثانية في سرت عام ٢٠١٠. وقد أصدرت هذه القمة وثيقتين مهمتين: **الأولى** بعنوان استراتيجية الشراكة العربية ـ الأفريقية وهي تتألف من أربعة مجالات هي: السلم والأمن، وحوافز الاستثمار والتبادل التجاري، والأمن الغذائي والزراعي، والتعاون الثقافي والاجتماعي. وقد تم توضيح أبعاد هذه الاستراتيجية في الوثيقة **الثانية** التي أصدرها المؤتمر بعنوان «خطة العمل العربي ـ الأفريقي المشترك ٢٠١١ ـ ٢٠١٦» وهي تتضمن ثلاثين صفحة حول إجراءات محددة لتعزيز التعاون العربي ـ الأفريقي.

ووفقاً لرؤية أفرابيا فإن المؤسسات المالية المرتبطة بالعمل العربي ـ الأفريقي المشترك تعبِّر عن نموذج خاطئ ينبغي تعديله. فالصورة السائدة هي أن الجانب العربي يوفر التمويل والمساعدات لأفريقيا. يقول مزروعي[٢٢]: «إننا بحاجة إلى ابتكار وسائل جديدة لتجاوز الصورة النمطية التي تقدم العرب دائماً بوصفهم مانحين والأفارقة بوصفهم مستفيدين من المساعدات الخارجية. وتستطيع مؤسسات أفرابيا توفير الموارد اللازمة من أثرياء العرب وأفريقيا لتلبية حاجات الفقراء في كل من أفريقيا والعالم العربي».

خامساً: الأفروعربية والعبور للمستقبل

إن القراءة الواعية لتحديات العلاقات العربية ـ الأفريقية تظهر أهمية التوقف عند اعتبارات ثلاثة أساسية يترتب عليها إمكان تأسيس شراكة عربية أفريقية حقيقية والعبور إلى المستقبل بحيث يصبح القرن الحادي والعشرون قرناً عربياً ـ أفريقيا بامتياز.

العامل **الأول** يتمثل بالمقايضة السياسية حيث بنيت العلاقة في معظم فتراتها بين العرب والأفارقة على أساس أن مقابل الدعم المالي العربي هو توقع مساندة الأفارقة للقضايا العربية في المحافل الدولية. ولا شك في أن هذا الثمن السياسي لا يعبّر عن إرادة حقيقية من الطرفين لإقامة شراكة استراتيجية تقوم على أساس التكافؤ والمساواة.

أما العامل **الثاني** فإنه يتمثل بغياب التوازن أو إن شئت الدقة فقل عدم المساواة في منظومة العلاقات العربية ـ الأفريقية، وربما دفع ذلك إلى قيام البلدان العربية بتبني المنظور الثنائي في علاقاتها مع أفريقيا لضمان تحقيق مصالحها الوطنية بما يعني الابتعاد من الإطار المؤسسي للتعاون والذي أنتجته القمم الأفروعربية منذ عام ١٩٧٧.

ويتمثّل العامل **الثالث** بتدخل الأطراف الدولية لتعطيل مسيرة التعاون العربي ـ الأفريقي، فإضافة إلى القوى الاستعمارية التقليدية، مثل بريطانيا وفرنسا، جاءت الولايات المتحدة الأمريكية في مرحلة ما بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لتحمل شعار محاربة الإرهاب في أفريقيا، وهو

---

(٢٢) Mazrui, *Africanity Redefined*: *Collected Essays of Ali A. Mazrui*, p. 93.

ما يعني في جوهره تفجير مناطق وبؤر التوتر القلقة في العالمين العربي والأفريقي. كما أن القوى الصاعدة مثل الصين والقوى الإقليمية التقليدية مثل تركيا وإسرائيل وإيران تحاول من خلال سياساتها الأفريقية وأدوات قوتها الناعمة خلق مناطق نفوذ لها في المحيط الاستراتيجي العربي في أفريقيا، وهو ما يمثل تحدياً مهماً أمام تنفيذ خطة التعاون العربي ـ الأفريقي.

أيّاً كان الأمر فإن النجاح في تأسيس شراكة استراتيجية جديدة بين العرب والأفارقة رهن بمدى نجاح الطرفين في عدم تسييس العلاقة بينهما، وتدشين حوار استراتيجي جديد يناقش كل القضايا ذات الاهتمام المشترك على قدم المساواة.

يقول علي مزروعي: «إن تاريخ العرب في أفريقيا ينطوي على عدد من التناقضات. فقد كان العرب فاتحين ومحررين على حد سواء، كما شاركوا في تجارة الرقيق وبشروا بأفكار جديدة. كما حمل العرب معهم الإسلام والتجارة. وفي واقع الأمر فقد ارتبط الإسلام بحركة التجارة في معظم فترات التاريخ الحديث لأفريقيا شمال نهر الزامبيزي. ولا يخفى أن قوافل التجار المسلمين في شمال وغرب أفريقيا ترجع إلى مئات السنين. وفي شرق أفريقيا جاء التجار عبر عدة قرون أيضاً من خليج عمان وجنوب شبه الجزيرة العربية حيث قاموا بدور بارز في نشر الثقافة والمعرفة. وعليه لم يكن انتشار الإسلام في أفريقيا نتيجة عمل تبشيري منظم بقدر ما كان نتاج حركة التجارة والفتح»[٢٣]. ومع ذلك فقد أضحى العامل الإسلامي اليوم دافعاً للانقسام والتناحر كما تعبر عن ذلك خبرة بوكوحرام في نيجيريا والشباب المجاهدين في الصومال والسلفية الجهادية في شمال مالي.

ما العمل إذاً؟ أحسب أن إعادة الاعتبار لمفهوم أفرابيا كإطار وحدوي جامع يقود نهضة العرب وأفريقيا يرتبط بتبني ثلاثة مداخل أساسية:

أولها المدخل الثقافي بهدف تجاوز الحساسيات التاريخية التي تجسدها الصور الذهنية والأنماط الجامدة السلبية السائدة بين العرب والأفارقة. لا بد من تجاوز إشكالية الهوية التي وقفت حائلاً أمام الشراكة المتساوية بين الطرفين، فمناطق مثل دارفور وشمال مالي وموريتانيا تعكس انقساماً في الهوية بين العرب والأفارقة كرَّسته المواريث الاستعمارية والسياسات الوطنية الخاطئة. إننا بحاجة إلى تبني منظور جديد يركز على أهمية الاستفادة من الخبرات المشتركة للشعوب العربية والأفريقية على قدم المساواة. فالأفروعربية الثقافية التي جسدتها الهجرات العربية ـ الأفريقية وعلاقات الدم والزواج والمصاهرة تمثل مدخلاً مهماً لمحو آثار الماضي والانطلاق نحو المستقبل.

أدركت القمة العربية ـ الأفريقية الأولى التي عقدت في القاهرة عام١٩٧٧ أهمية هذا الهدف فقررت العمل من أجل ترسيخ العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة. أفضى ذلك إلى اعتماد النظام الأساسي لقيام المعهد الثقافي العربي ـ الأفريقي عام ١٩٨٥، الذي افتتح رسمياً في عام ٢٠٠٢

(٢٣) Hamdy A. Hassan, *Regional Integration in Africa Bridging the North-Sub-Saharan Divide* (Oxford: Africa Institute of South Africa, 2011), p. 60.

بمدينة باماكو عاصمة دولة مالي. ومع ذلك فإن هذه المؤسسة الثقافية المهمة عكست صورة العجز العربي العام فأنتجت عملاً يتيماً واحداً حول «تراث مخطوطات اللغة الأفريقية بالحرف العربي» حرره حلمي شعراوي. ويبدو أن القائمين على المعهد رأوا في شخصية ابن بطوطة رمزاً لعمق وثراء الثقافة العربية ـ الأفريقية فانشغلوا في عمل تمثال للرحالة العربي كي يوضع في أحد ميادين باماكو العامة.

وعلى أي حال فإن التركيز على مصادر الثقافة العجمية في التراث الأفريقي يعد أحد المداخل الاستراتيجية التي يمكن البناء عليها. يقصد بذلك عملية استخدام الحرف العربي في كتابة اللغات الأفريقية. فالناظر إلى اللغات الأفريقية المهمة مثل الهوسا والولوف والسونينكا والديولا في الغرب الأفريقي، والسواحيلي في شرق أفريقيا، يجد أنها تمتلك مصادر تاريخية مهمة مكتوبة بالحرف العربي. بل وتذكر بعض الروايات أن الكتابات المبكرة للغة «الأفريكانرز» في الجنوب الأفريقي قد استخدمت الحرف العربي كذلك[٢٤].

انتبه مزروعي إلى ضرورة التمسك باللغة العربية كعامل توحيد ثقافي موضحاً أنها لغة أفريقيا، وأن كتابة الحرف الأعجمي موجودة في عدد من اللغات الأفريقية. وربما يتفق ذلك مع ما قاله جون هانويك (John Hunwick) إن اللغة العربية تمثل لاتينية أفريقيا، بمعنى إن كان الحرف اللاتيني هو الأساس المشترك للغات الأوروبية المتمثلة بالإنكليزية والفرنسية والألمانية، فإن الحرف العربي كذلك مؤهل لأن يكون الأساس المشترك للغات الأفريقية المتمثلة بالهوسا والفولاني والسواحيلي والصومالي[٢٥]. وقد انتهى مزروعي في رؤيته الثقافية الجامعة إلى أن العرب والأفارقة شيء واحد، مستنداً في ذلك إلى الأصول الإبراهيمية التي ترجع العرب إلى جدهم إسماعيل وهم بذلك أبناء هاجر الأمة المصرية الأفريقية الأصل.

أما **المدخل الثاني** فإنه اقتصادي تنموي يركز على منظور المنافع المشتركة، وهو ما يشير إلى إقامة شراكة حقيقية في إطار تنمية دول الجنوب والاعتماد الجماعي على الذات. ولعل مشروع ربط اليمن بجيبوتي عن طريق إقامة جسر يربط بين جانبَي مضيق باب المندب يمثل خطوة مهمة في إعادة اللحمة العضوية بين شبه الجزيرة العربية والساحل الشرقي لأفريقيا ويسهم في تحقيق نبوءة مزروعي بإعادة أفرقة الجزيرة العربية. ومن المفيد الإشارة إلى أهمية هذا المنظور التنموي في تجاوز كثير من الأزمات التي تعترض العلاقات العربية ـ الأفريقية مثل الصومال والسودان ومسألة مياه النيل.

---

(٢٤) حلمي شعراوي، **بحث عن الهوية الأفريقية في المخطوطات بالحرف العربي ـ العجمي** (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٥).

(٢٥) John Hunwick, «Arabic Literature of Africa: Project and Publication,» (Northwestern University, Program of African Studies, Working Paper Series, Institute for the Study of Islamic Thought in Africa, 2005), p. i.

لقد ناقش علي مزروعي الروابط الاقتصادية والتاريخية بين العرب وأفريقيا في مقال مهم نشر عام ١٩٧٥[٢٦]. فالمساعدات التي قدمتها البلدان العربية إلى حركات التحرر في روديسيا وجنوب أفريقيا وكذلك الدعم الدبلوماسي للدول الأفريقية إنما كان بهدف التأثير في القرار الأفريقي المتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي. ويرى مزروعي أن المساعدات العربية من منظور الأفرابيا ينبغي أن تكون، كما ذكرنا، من أثرياء العرب وأفريقيا للمساهمة في نهضة العالمَين العربي والأفريقي. وعليه فإن مثل هذه المساعدات تخرج عن دائرة «المساعدات المميتة»، وهي المساعدات الغربية المشروطة التي تحدثت عنها **دامبيسا مويو**[٢٧].

ويشير **المدخل الثالث** إلى الجانب الأمني والسياسي. فثمة تهديدات مشتركة نابعة من الصراعات المسلحة وعمليات التهريب عبر الحدود وقضايا التطرف الديني، وهو ما يفرض ضرورة التعاون الأمني بين العرب والأفارقة لمواجهة هذه التحديات الخطيرة. ولعل نجاح أفريقيا في صياغة منظور أمني جديد منذ عام ٢٠٠٢ يمثل خطوة مهمة للاستفادة منها في إصلاح منظومة الأمن الجماعي القائمة في النظام الإقليمي العربي. ولعل قضايا الحكم وفشل بناء الدولة التي أدت إلى أحداث الربيع العربي في شمال أفريقيا تؤكد مرة أخرى أهمية مدخل الأفرابيا. يرى علي مزروعي أن الفهم الصحيح لأحداث مصر وتونس وليبيا هو وضعها في سياق انتفاضات أفرابيا. فأحداث سويتو في جنوب أفريقيا عام ١٩٧٦ وانتفاضات السودانيين ضد الحكم العسكري عامي ١٩٦٤ و١٩٨٥ تمثل سوابق أفريقية مهمة للحركات الشعبية المطالبة بالديمقراطية في الوطن العربي. وعليه فإن إعادة صياغة مفاهيم الأمن والحكم من منظور الأفرابيا يمثّل نقطة انطلاق كبرى من أجل تجاوز وضع الهشاشة ومعضلة الأمن في العالمين العربي والأفريقي.

وأيّاً كان الأمر فإن النجاح في تأسيس شراكة استراتيجية جديدة بين العرب والأفارقة رهن بمدى نجاح الطرفين في عدم تسييس العلاقة بينهما وتدشين حوار استراتيجي جديد يناقش كل القضايا ذات الاهتمام المشترك على قدم المساواة. ولعل ذلك كله يفرض علينا ضرورة تبنّي شعار «التوجه جنوباً» نحو أفريقيا للانطلاق معاً نحو آفاق جديدة للنهضة والرقي. فهل نتعلم من أخطاء الماضي ونواجه تحديات الحاضر والمستقبل لتحقيق حلم أفرابيا؟ إننا بحاجة اليوم قبل أي وقت مضى إلى أن تسكن أفرابيا عقول مثقفينا وكتابنا قبل أن تتحول إلى حركة واقعية تكاملية. تلك هي الرؤية التي كان يحلم بها ابن الأفرابيا الكبير علي مزروعي □

(٢٦) Ali A. Mazrui, «Black Africa and the Arabs,» *Foreign Affairs*, vol. 53, no. 4 (July 1975), pp. 725-742.

(٢٧) Dambisa Moyo, *Dead Aid: Why Aid Is Not Working and How There Is a Better Way for Africa* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2009).